إفلاق

اللغة والمسألة الثقافية

□ عبد الكريم غلاب

ARCHIVE

قد يكون من غير الضروري أن نعود إلى موضوع نشأة اللغة وعلاقتها بوجود الوطن والمواطن والقومية. ولكن حديثي عن علاقة اللغة بالمسألة الثقافية يحفزني الى التفكير عن علاقة الوطن والمواطن والقومية بالثقافة. الثقافة تدور في فلك هذه المقومات، لا تستطيع عنها فكاكا، رغم الاتجاهات التي تحاول أن تجرد الثقافة من بيئتها وعلاقتها بأرض معينة، بإنسان معين، بقومية معينة.

وإذا عدنا الى علاقة اللغة بهذه المقومات لا نجد بدا من ترديد الآراء التي تؤكد أن نشأة اللغة عند الإنسان الذي يستعملها ليست توقيفية كما يزعم بعض الباحثين العرب الأقدمين، وليست طبيعة في الإنسان حتى ان الطفل يولد ولديه فكرة عن طبيعة اللغة، وأنه سرعان ما يتبين عندما يبدأ الكلام أنه يعلم مسبقا الطريقة الهرمية التي تتركب منها الجملة كما يرى بعض الباحثين المحدثين. وانما اللغة في رأيي تتكون نتيجة مجهود فكري، يبدأ بالوعي ثم بالاحتذاء عن طريق السمع والبصر، ثم بالاهتداء الى تكوين الجملة عن طريق اتقان القاعدة في شكلها البدائي التقليدي ثم في شكلها العلمي بعد التعلم. ولا نريد أن نعود الى نشأة اللغة عند آدم هل أوحي إليه بها أو أوحى بها الى نفسه عن طريق التجربة. فذلك بحث لا يفيدنا في شيء إلا أن نخلص الى التأكيد بأنه، وأبناءه من بعد، بذلوا نفس المجهود الذي يبذله الطفل أو الرجل وهو يتعلم لغة جديدة عليه، مع فارق هو أنه لم يكن له معلم ولا نموذج، وإنما هي الكلمة يلفظها ويكررها مصطلحا فتصبح اسما لشيئ، ثم يلفظ أخرى ويكررها فتصبح لها دلالة الفعل أو الأداة...

وقد تطورت اللغة كوسيلة اتصال، وكأهم مظهر للسلوك الانساني فأصبحت وعاء لفكر، لا تعبر عن

المحسوسات فحسب، ولكنها ارتقت لتعبر عن النظريات، ربما بدأت بالتعبير عن النظرية الدينية عند اكتشاف الإنسان لله ممثلا في القوة الغيبية الكبرى، والتعبير عن الفعل، عن المنظور عندما يتعلق الأمر بتعليمات قانونية مثلا، ثم تطور هذا الوعاء فشمل جميع التنظيرات الفكرية والفلسفية والعلمية النظرية والتجريبية . . . ثم تطور هذا الوعاء - ربما في نفس الآن أو قبله - فشمل كل المشاعر والأحاسيس العاطفية الشخصية والإنسانية. وما تزال اللغة تتطور لتصبح قيمة فنية جمالية في حد ذاتها، أكثر من وعاء، أو خارج الوعاء. فأنت تستطيع أن تقرأ نصا جميلا رائعا في حد ذاته دون أن يقول لك شيئا الا جماله وفنيته. وكثير من القطع الشعرية - بعضها مما يتنكر له قراء الشعر وعشاقه - والنثرية نسعد بقراءتها، كما نسعد برؤية وردة جميلة لكنها لا تقول لنا شيئا، كتلك الوردة التي لا تضوع منها رائحة. وكثير من الخطب السياسية والاتفاقات الدولية جميلة في مبناها، فقيرة في معناها. فم تكن بذلك وعاء لفكرة ما، ولكنها هيكل جميل قد ثير تصفيق السامعين قبل القارئين، ولكنك - وأنت تبحث داخل الوعاء - لن تجد إلا الفراغ.

وقد انتصر الوعاء المليء على الوعاء الفارغ، فظلت اللغة مرتبطة بالفكر، بالثقافة، بالعلم حتى حدث بينهما ما يعبر عنه الصوفية بالحلول والاتحاد. فاللغة عند كثير من المنظرين في علم اللغة ليست أداة خارجة عن الفكر، بل هي الفكر نفسه، أو تحدد مسار الفكر وترسم حدوده عن منظرين آخرين. وبذلك تكون اللغة هي التي تجعل مجتمعا ما يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر فيها. وذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته.

وقد ينطبق هذا القول على الخطاب الشفوي، ولكنه أكثر دلالة في الخطاب المكتوب. ونستطيع أن نؤكد أن اللغة لا تقف في الخطاب المكتوب موقف الوعاء أو موقف الموجه المحدد لمسار الفكر والراسم لحدوده، ولكن لها فاعلية أكبر من ذلك وهي التآثر أو تبادل التأثير مع الفكر. فكما أنها توحي وترسم المسار وتوجه الفكر لكثير من مناحي التفكير، ولكثير من النظريات، بفضل غناها بالمفردات والمصطلحات وبفضل قوتها على الايحاء والتأثير، فهي أيضا تتأثر بالفكر وبالثقافة وبالعلم. تأخذ منها جميعا كثيرا من المفردات والاصطلاحات والتراكيب أكثر مما تأخذ من قاموسها الذي وضعه المتحدثون الأوائل بها أو كاتبوها الأول. وهذا أساس التطور في اللغات. لنأخذ العربية مثالا لها لنجد أن الذين - والقرآن بالأخص - منحها قاموسا جديدا وصيغا وتعابير جديدة لم تعرفها من قبل رغم أنها كانت متطورة متقدمة بفضل أنها لغة الشعر والخطابة، ومنحتها العلوم الدينية والمتصلة بالإسلام تعابير جديدة، ومنحتها الدراسات الاسلامية الكلامية والفلسفية مصطلحات جديدة وتراكيب وتعابير جديدة، ومنحتها الفلسفة والتصوف والعلوم مفردات ومصطلحات وتراكيب جديدة فضلا عن الشعر الذي عرف تطورا مهما عن منهجه الجاهلي في العصر العباسي والأندلسي والعصر الحديث.

اللغة العربية إذن واكبت التطور الثقافي مواكبة هائلة أثرت في الثقافة العربية والاسلامية بدون شك لأنها أداة مكتملة زادها القرآن صقلا واكتمالا، وتأثرت أكثر بالثقافة العربية والاسلامية فكملت كلغة معبرة عن ضروب المعرفة التي عرفها العالم فيما يسمى بالقرون الوسطى، واستطاعت أن تنقل الى المتحدثين بها وقارئيها علوم الأوائل من اللغات العلمية الحية آنذاك، اليونانية والعبرية مثلا، ثم استطاعت أن تنقل العلوم العربية والاسلامية، بكل أبعادها التنظيرية والتجريبية، الى اللغات التي بدأت تحيى في تلك العصور كاللاتينية فكانت بذلك وعاء عامرا للمعرفة أخذ وأعطى ونمى وحافظ على إنماء المعرفة في عصر التنوير المعرفي.

وإذا انتقلنا الى عصر التنوير العربي الذي يبتدئ من عصر النهضة بداية بعملية الترجمة في منتصف القرن الماضي نجد أن وعاء اللغة العربية اتسع ليكتسب ألفاظا ومصطلحات نحتت أو ابتدعت لتصبح عربية. ليس بفعل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الترجمة فحسب، ولكن كذلك بفعل اتساع آفاق المعارف في المجتمع العربي الاسلامي. وحدث نفس التآثر فقد أمدت اللغة هذه المعارف بما تملك - ولو من الماضي المنير - واستمدت من هذه المعارف كثيرا من الألفاظ والمصطلحات والتعابير فكانت وعاء متسعا من جهة، وكانت محددا لمسار الفكر العربي الاسلامي الحديث من جهة، وكانت هي الفكر وهي الثقافة من جهة ثالثة. فهذه النظريات الثلاث لا تتزاحم في رأيي، لأن اللغة نفسها تتطور، وقد تكون في مرحلة ما أداة ثم تصبح في مرحلة من مراحلها وعاء، ثم تتطور فتصبح هي الفكر تبعاً لنظرية الحلول والاتحاد.

وأريد من ذلك أن أخلص الى أن اللغة التي تخوض غمار ثقافة بعزم وقوة وبفعالية وبتآثر وعلى مرحلة طويلة في الزمان -ولتكن اللغة العربية دائما أمام نظرنا - لا يمكن الا أن تكون لها الريادة في الفكر والثقافة، ولا يمكن الا أن تكون هي اللغة الوطنية - أو القومية بمعنى الوطنية - في الوطن الذي سادت فيه.

هل اللغة الوطنية تختار الوطن والمواطن أو هو الذي يختارها؟

سؤال قد يجد الجواب عليه سهلا، فكل منهما يختار الآخر دون أن نقف طويلا عند مرحلة البداية لنحكم بأنها له أولها. غير أن اللغة التي تبدأ بدائية في وطن ما وبين قوم ما، ثم تتطور لتصبح لغة مثقفة تأخذ نصيبها من حظ الوطن في الثقافة والمعرفة، تكون لها أفضلية البداية في الاختيار. فالوطن اختارها كألفاظ بدائية وتعابير عن البيان، ولكنها اختارته في رحلة التطور والتثقيف، مرحلة الاستمداد من الفكر والتعبير عن الفكر. مرحلة الفنية والفكرية والدينية والفلسفية. وبذلك تفرض نفسها، ليس بذاتها بالنطق بها، ، لكن بمكناتها المكتوبة والمنظورة والمغناة، وبرصيدها الفكري والفني والتقني.

ولذلك فاللغة تختار الوطن والمواطن، في مرحلتها المثقفة بعد أن يكون قد اختارها كلغة منطوقة، ثم أسهم في تنميتها وإشباعها بالمفاهيم العلمية والفكرية والدينية والاقتصادية والثقافية عموما، وبعد أن يكون أغناها بالمفردات والتعابير والأساليب، وبعد أن يكون قد منحها من أحاسيسه ومشاعره وتمثله للفنون، ومسايرته للحياة المتحركة داخل الفكر الخاص والفكر الديني والفكر العلمي والفكر الإنساني.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونخلص من ذلك إلى القول بأن الثقافة الوطنية تفرض لغة وطنية.

هل الثقافة يمكن أن تكون وطنية؟

نوقش موضوع هذا السؤال على كثير من المستويات، انطلاقا من التفكير في الوطنية والإنسانية. وحينما أخلص إلى ما اختاره من رأي ولا أشك في أن الثقافة (لا أقول العلم) تأخذ الطابع الوطني حينما ترتبط بكثر من المفاهيم الوطنية والقومية والاقليمية، ولو اتسعت دائرتها فشملت جزء من قارة، أو شملت مجموعة شعوب أو امتدت على مساحات واسعة وعلى أجزاء متجاورة أو متباعدة من قارات. الأسس الثقافية التي تمتح من العقلية الخاصة ومن الذهبية الخاصة كما تمتح من خصوصية الجغرافية والتاريخ ومن الدين ومن العادات والتقاليد، وكلها تكون مفاهيم خاصة ومثلا وتنظيرات. هذه جميعها تطبع الثقافة بخصوصية الوطن. وتتسع هذه الخصوصية كلما اتسعت منابع الثقافة فنقول مثلا: الثقافة الاسلامية أو الثقافة المسيحية (كلما كان للدين أثره المتحكم في الأسس التي تقوم عليها الثقافة)، وتضيق هذه الخصوصية كلما ضاقت منابع الثقافة. أو ضاقت الرقعة الثقافية فنقول مثلا بتجاوز: الثقافة المغربية أو الفرنسية أو الألمانية.

و هنا تأتي اللغة بكل ممكناتها التعبيرية وبكل تراثها وقدرتها على المسايرة الثقافية لتؤثر في هذه المفاهيم، ولتمنح للثقافة خصوصية أخرى فنقول مثلا الثقافة العربية أو الفرنسية أو الألمانية بمفهوم اللغة أكثر من مفهوم القومية أو الجنس أو العرق.

نخلص من ذلك الى أن الثقافة الوطني تفرض لغة وطنية. بمعنى أن الوطن والمواطن لا يمكن أن يعالج المسألة الثقافية بأي لغة شاء دون أن يتبنى لغة وطنية ينتمي إليها، وتتبنى هذه اللغة ثقافته لتكون وعاء لها، أو تكون هي هي بمفهوم الحلول والاتحاد.

ونخلص من ذلك أيضا الى القول بأن الثقافة الوطنية لا تمنح اللغة جنسيتها فحسب، ولكنها تمنحها أيضا ارتباطا بالفكر وبالحياة كلما مكنتها من مفاهيم جديدة- الى جانب المفاهيم القديمة التراثية، وكلما طوعتها للتعبير عن كل حركة علمية أو فلسفية أو فنية ينبض بها العقل، الفكر والقلب والعاطفة جميعها.

الثقافة إذن تنمي اللغة وتحييها وتمنحها قوة البقاء والصمود والوقوف في وجه التحديات.

وهنا نجد اللغة تتعرض لامتحان عسير تقع فيه بين اختيارين: أن تكون أولا تكون. أن تبقى أو تفنى، أو على الأقل أن تنزوي في الشفوي أو الظاهر الحسي البسيط من القول المعبر عن الظاهر الحسي البسيط من الشيء. يأتي هذا الامتحان من التحديات التي تواجهها كل اللغات التي تنسحب الثقافة من امدادها بعناصر القوة التي يمكن بها أن ترد التحدي بالتحدي.

أول هذه التحديات انحدار المستوى الثقافي والعلمي. وقد واجهت اللغة العربية هذا التحدي، وهي مثال اللغات التي كان لها ماض علمي وثقافي مجيد، ثم انحسر هذا المد بعد الجزر الثقافي الذي عرفته في تاريخها. العربية كانت لغة قادرة على مواكبة الثقافة العربية الاسلامية بكل أبعادها الذاتية، وبكل ما أمد هذه الثقافة من عناصر القوة، أي الثقافات الأجنبية التي تعاملت معها الثقافة الاسلامية وهضمتها وأضافت إليها ونقلتها - ويوم انحسر هذا المجد الثقافي ذوت اللغة وجفت الحياة من عودها، سواء على المستوى العلمي أو الفني أو الفكري الفلسفي. ظلت اللغة قاموسية محفوظة في الكتب والمصنفات العلمية المتخلفة بشكلها المتخلف المعقد الذاوي. فلم تعد قادرة على التطور ولا حتى على التوقف، ولكنها تراجعت الى حيث نعرف في المصنفات الفقهية والنحوية والبلاغية، والى حيث نعرف في القواميس الميتة، والى حيث نعرف في شعر ونثر ما يمكن أن نسميه العصورالوسطى العربية والاسلامية.

ويستمر هذا التحدي قائما في ظل ضحالة الثقافة العلمية والأدبية التي يعرفها الوطن العربي. فبقياس تطور المعرفة عموديا وأفقيا في العالم نجد أن الثقافة في الوطن العربي في مرحلة جزر لا مد، وأن التعليم، وهو سبيل المعرفة العلمية والأدبية، يتخلف كما وكيفا في كثير من البلاد العربية، ولا يساير التطور السكاني، ولا الحاجة للتطور الاقتصادي والاجتماعي. وتعليم بهذا المستوى لا يمكن أن ينهض بثقافة أقوى، وبالتالي لا يمكن أن يمنح لغته قوة المواجهة والتحدي والتطور.

ثاني التحديات يأتي من غزو اللغات الأجنبية التي تطورت مع النهضة الأروبية تطور العلم والصناعة والثقافة وفنون القول المختلفة التي لم تعد تقتصر على الفنين الأساسيين: الشعر والنثر، بالمفهوم العام لهما، ولكنها تعمقت في أصناف أخرى من فنون القول المسرحي، القصصي والروائي والشعري الجديد، وتعمقت في مظاهر أخرى من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الثقافة الفكرية والمذهبية والسياسية والاجتماعية . وأصبحت لغة العصر الحديث لا تنتمي للغة العصور القديمة الا بأصولها المفردية والتركيبية . ويمكن أن نستدل بمئات المفردات الجديدة التي تعرفها العلوم والتقنيات والتنظيرات السياسية والمذهبية والاجتماعية كل يوم .

هذا التطور العلمي الثقافي اللغوي يفرض نفسه كتحد خطير على اللغة العربية . ورغم التطور الذي عرفته وتعرفه العربية عن طريق الاشتقاق والنحت والترجمة والابتكار ، فإنها ظلت قاصرة عن مجاراة العصر ، وقاصرة عن أن تصمد للغزو اللغوي الأجنبي لقصورها في المعرفة ، وليس لقصورها كلغة معبرة . ومانشك في أن هذا القصور لو استمر سيفقد العربية قدرتها على مجاراة العصر في المجالات العلمية والتقنية على الأخص . وحرى به أن يستمر ما دامت العربية لا تجرب ولا تدخل معركة الممارسة . سيظل أصحاب القرار يزعمون أنها قاصرة ، وهي قاصرة بالفعل ، ولكن أية لغة لم تكن قاصرة ثم رشدت . لا نحتاج أن نضرب الأمثال التي تضرب في مثل هذه المناقشة ، ولكنا نستطيع أن نتجه الى اللغات المشهود لها بالرشد : الانجليزية والفرنسية والألمانية مثلا . كانت هي الأخرى - وما تزال - قاصرة ، ولكن الممارسة التي أصابت فيها وأخطأت والجرأة على ابتكار اللفظة والمصطلح والتعبير هي التي نفت عنها القصور ومكنتها من التعبير والمتابعة ، بل مكنتها من مساعدة العلم والتقنية نفسيهما على النماء والتقدم .

ثالث التحديات الغزو الفكري ما يزال يوحى للعرب بأنهم ينبغي أن يظلوا حيث هم في المجال المعرفي . وإذا رأينا دولة عربية تتعرض للغزو والتدمير والموت فليس لأنها تجاوزت الحدود فغزت أختا لها غير قادرة على الدفاع عن نفسها ، وليس لأنها تمتلك الطاقة البترولية وتريد أن تسيطر على منابع أخرى لهذه الطاقة ، ولكن لأنها أخذت سبيل المعرفة التقنية ، ولو لم تكن لنتائج هذه المعرفة أخطار أمنية على اسرائيل . كان المهم أن تدمر دولة وشعب بدأ يفكر للخروج من عهد التخلف العلمي والأخذ بطبع التطور العلمي . وتدمير هذا القطر العربي سيكون درسا للآخرين حتى لا يتجهوا اتجاها علميا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبذلك ستضرب كل دولة تريد أن تتخلص من التخلف العلمي والتقني ألف حساب واضعة عينيها ما حدث للعراق سنة 1990-1991 .

ألا يؤثر ذلك على تطور اللغة العربية وانحسارها في الآفاق المحدودة التي ترسمها لها الثقافة المحدودة؟

ورابع التحديات ناتج عن بعد آخر للغزو الفكري وهو إيمان المسؤولين بأن اللغة قاصرة ، ولذلك لا يمكن أن تساير التطور العلمي . ومن هنا يأتي الخلل في التعليم الذي عرفته معظم البلاد التي مرت بمرحلة استعمار سياسي ترك آثاره في الاستعمار الفكري . ومن سوء حظ اللغة العربية بالذات أن المسؤولين عن التربية والتعليم كانوا في أغلبهم ممن هم ضحية هذه العقدة التي تطورت عند بعضهم حتى أخذت طابع العداء للغة العربية .

القضية - رغم كل هذه التحديات - ليست قضية اللغة وحدها ، ولكنها قضية الثقافة فكما سبق القول فالثقافة لا تعيش بغير اللغة الوطنية ، واللغة الوطنية لا تعيش بغير ثقافة وطنية . وما دامت اللغة تواجه كل هذه التحديات فستبقى الثقافة محاصرة في الأفق المحدود ، بكل مضامين المحدودية أفقيا وعموديا كما وكيفا .

أريد أخيرا أن أشير الى نقطة أساسية وهي أن الثقافة الوطنية يجب أن تتبنى لغة وطنية واحدة كلغة تلقين وعلم . التمزق اللغوي يؤثر في التمزق الثقافي والفكري ويحد من التطورالثقافي . لا يعني ذلك - كما هو واضح الانفعال على اللغات الأخرى وطنية وأجنبية ، ولكن يعني تمكين اللغة الوطنية التي تملك رصيدا علميا ، والتي تتطور

في أفق أوسع من حدود الوطن الضيق والتي لها اشعاع أوسع مدى، والتي تبشر بمستقبل أكثر نجاحا، تمكين هذه اللغة من أن تكون لغة العلم والثقافة لتستفيد من التطور الثقافي وتفيده في نفس الآن.

التعدد اللغوي لا تختص به بلاد دون أخرى. واذا عرفنا أن الولايات المتحدة تصارع فيها اللغة الاسبانية اللغة الانجليزية كما تصارع اللغة الفرنسية اللغة الانجليزية في كندا، تصارع اللغة الكاطلانية اللغة الإسبانية في اسبانيا نفسها، وبعض اللغات المحلية اللغة الفرنسية في فرنسا. أما سويسرا فهي مثال للغات وطنية ثلاث لا تتصارع لأنها لغات قومية، ولكنها تتصارع لأن سويسرا نفسها لا وجود لها كوطن موحد متكامل عرقيا ووطنيا وقوميا بقدر ما هي فسيفساء لقوميات مختلفة تابعة من بلاد أخرى هي ألمانيا وإيطاليا وفرنسا، وتتبنى كل جالية لغتها الخاصة بها. ولهذا كانت الدولة مؤسسة توفيقية، وليست مؤسسة وطنية، والأمر شبيه بذلك في بلجيكا. الانتماء العرقي الصارم يجعل الدولة نفسها ضائعة بين العنصرين الرئيسيين، ويجعل اللغتين ميدان صراع أكثر منهما ميدان لقاء وتوفيق. وهو صراع لا يتجلى في الميدان الثقافي فحسب، ولكنه يتجلى أيضا في الميدان السياسي. ولولا الملكية التي أصبحت عامل مصالحة أكثر منها عامل توحيد لتمزقت ربما وحدة بلجيكا.

ولا يختلف الأمر في العالم الثالث، والمغرب منه، فكل الشعوب والدول التي اعتمدت القبلية والعرقية انهارت وحدتها، وتعرضت لمصاعب اعترضت تكوين الدولة كما اعترضت وحدة الشعب. والتمزق الذي نشهده في دول افريقية وأسيوية-بعضها عريق كأثيوبيا والهند- ناشيء عن هذا الصراع العرقي والقبلي. واللغة كانت إحد مظاهره.

وربما كان من سوء حظ هذه الدول أنها لا تملك لغة وطنية موحدة. ولهذا أخذ بعضها يلتجيء الى لغة أجنبية كلما فعلت الهند وباكستان بلجوئهما الى الانجليزية وكما فعلت نيجيرياعلى غرار ما فعلت الولايات المتحدة الأمريكية التي اصطلحت عاى الانجليزية بدلا من عشرات اللغات التي ينتمي إليها المستوطنون من مختلف الجنسيات والقوميات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الالتجاء الى اللغة الأقوى. وأقصد بالقوة هنا القوة الثقافية هو الحل لاشكالية تعدد القوميات أو الأعراق في الوطن الواحد. ومن الواضح أن العرقية فكرة متخلفة، وربما كان آخر انبعاث لها مع النازية الألمانية. ولكنها انتهت من الفكر المثقف في جميع أنحاء العالم. وتبقى بعد ذلك ظروف الوحدة هي التي تتحكم في تكوين الشعوب وصمودها. والدين واللغة في مقدمة ظروف الوحدة.

وكل اللغات الوطنية تواجه تحديات خطيرة. مصدرها اللغات الأجنبية الأقوى. وما الفرانكفونية والانجلوفونية إلا مظهر كبير وخطير لهذا التحدي الذي بلغ غايته وأهدافه في بلاد افريقيا وآسيا كما بلغت اللغات الانجليزية والاسبانية والبرتغالية أهدافها في قارة أمريكا بعد أن أنهت وجود الانسان ولغاته الوطنية ليصبح الأروبي، ولغاته الأقوى، هو المتحكم بعد عملية إبادة خطيرة.

نعود إلى اختيار اللغة الوطنية بين لغتين أو أكثر لنؤكد على أن اختيار اللغة الأقوى، قوة ثقافة، هو الحل لمشكل تعدد اللغات. فمن شأن صراع اللغات أن يجعل منها جميعا مجموعة من الوسائل الضعيفة سرعان ما تنهزم -ثقافيا ثم سياسيا واجتماعيا- أمام اللغة الأقوى.

وفي حالتنا بالمغرب العربي نجد أن التحدي اللغوي آت من اللغة الأقوى وهي الفرنسية التي مارست قوتها قرنا

وثلث قرن في الجزائر وأكثر من سبعين سنة في تونس وأكثر من أربعين سنة في المغرب. وماتزال تتحدى وجودنا الثقافي في المدرسة والادارة والشارع والحياة العامة، بل في الحياة الخاصة للعائلات في منازلها.

في هذه البلاد لغة وطنية، العربية، قوية قوة ثقافة بتاريخها وما كتب بها، وفي مقدمة مقوماتها القرآن، وهي اللغة الوحيدة التي يمكن أن تصمد في وجه تحدي اللغة الفرنسية والفرانكوفونية التي تنطلق منها، لتتحدى مقومات أخرى فكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية.

بلغتنا الوطنية العربية يمكن أن نمارس وجودنا الثقافي عموما. وبلغاتنا القومية الأخرى يمكن أن نمارس جانبا من وجودنا الفني والفكري التخصصي. لا يعني ذلك أن نتبنى لغتين أو أكثر، ولكن يعني أن نتعلم كل لغاتنا، على أن تكون لغة التلقين واحدة حتى يمكن مواجهة تحدي اللغة الأجنبية التي يقف بالمرصاد لأي فراغ يحدثه نتاج اللغات الأضعف.

لا أنطلق في الالحاح على هذا الرأي، الذي لا أزعم أنه جديد، من منطلق تعصب وطني أو قومي أو عرقي، ولكن، من منطلق رغبة في اجتياز مرحلة التخلف الثقافي واللغوي. البلاد العربية -كمثال - مدعوة أن تختار، كما اختارت كل الدول التي خضعت مثلها لموجات لغوية واستعمارية فوحدت لغة العلم واختارت الوطنية منها وطورت ثقافتها بلغتها وطورت لغتها بثقافتها، وصمدت لكل التحديات الوطنية والغيرية. واستفادت في الوقت نفسه من تطور الثقافات والعلوم، ولكنها خطت خطوات أكثر سعة في ميدان المعرفة لأنها تخلصت مما سميناه التمزق اللغوي. وكان ذلك سبيلا لتخلصها من التخلف المعرفي.

لا توجد مشكلة مثل هذه في اليابان أو الصين أو كوريا أو حتى في الهند التي اختارت لغة أجنبية كسبيل لتتخلص من عشرات اللغات واللهجات ولا في إيران رغم محدودية كثير من اللغات الوطنية في هذه البلاد.

لم إذن يقع العرب في مشكلة ثقافية ومعرفية عن طريق مشكلة لغوية مصطنعة؟

إنه التخلف.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com